آلهـــــة
من زجاج

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة
أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى
سماح الجمال

المدير الفني
أحمد جابر

تصميم الغلاف
حسين الشحات

التصميم الداخلى
وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2016 - 26692
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 27 - 5

حسيبة طاهر جغيم

رواية

آلهة من زجاج

٢٠١٧

إهـــداء

أهدي هذه الرواية خصيصا لكل صحفي وإعلامي عربي أو كردي نشر لي حرفًا وعرف بي قارئًا وأخذ بيديَ وشجعني ولو بكلمة وأذكر منهم :

- الإعلامي باسم الشومري، العراق.
- حافظ الشاعر، مصر.
- جلال جاف، العراق.
- شينوار إبراهيم، ألمانيا.
- محمود عزالدين، مصر.
- طارق فريد، مصر.
- فتحي الحصري، مصر.
- الصديقة العزيزة الصحفية كلود أبو شقرا، لبنان.
- وإلى دار النخبة وعلى رأسهم، رئيس مجلس الإدارة أسامة إبراهيم

الفصل الأول

تقع أحداث هذه الرواية فى قرية ريفية من قرى مدينة الميلية . وهى بلدية تابعة إقليميًا إلى دائرة الميلية ولاية جيجل بالشرق الجزائري، ثانى أكبر مدينة فى الولاية بعد جيجل.

يتداول الأهالى رواياتٍ ثلاثة عن أصل تسمية المدينة بـ "الميليّة:"

أولها، أنّ أهل ميلة كانوا يقصدون موطن قبيلة أولاد عيدون للتسوق فى أكبر سوق بالمنطقة ذلك الزمن، وينزلون بموقع قرب وادى الكبير، فكان سكان المنطقة يسمونهم "الميليّة" نسبة إلى بلدتهم ميلة وبمرور الزمن ارتبط الإسم بالمكان.

الثانية، أن امرأة صالحة كانت تسكن ظهر هضبة الدائرة اليوم وتعالج الناس من السحر والمس والمرض، يقال لها "الميليّة" نسبة لبلدتها ميلة، فكان الذين يقصدونها للعلاج يقولون نحن ذاهبون إلى الميليّة، فارتبط الاسم بالمكان.

والرواية الثالثة، أن القاضى "بن نيني" الذى ولّته فرنسا حاكمًا على الأهالي، سمى المنطقة إداريًا "المايلة" بسبب طبيعة تضاريسها المائلة، وسمى أولاد عيدون الذين كانوا يسكنونها "المايليّة"، ثم بنى الفرنسيون البرج العسكرى المعروف بـ "برج المايليّة" وتطور إلى إن أصبح "الميليّة"، وكل ذلك قريب من الصحّة.

أما قبيلة أولاد عيدون، فهى أكبر قبائل منطقة الشرق الجيجلي، يعود أصلها إلى قبيلة "دنهاجة" أحد بطون قبيلة كتامة الكبرى التى استوطنت المنطقة منذ القرن الحادى عشر ق م، حين جاء بها رفقة أختها صنهاجة الملك التبع اليمانى إفريقش بن صيفى على عهد النبى داوود.

وذكرهم اليعقوبى فى القرن التاسع الميلادى فى "مراسى ميلة" قائلاً:

"ومدينة عظيمة جليلة يقال لها ميلة، وسواحل البحر تقرب من هذه المدينة، ولها من المراسى مرسى يقال له جيجل، ومرسى يقال له قلعة خطاب، ومرسى يقال له أسيكدة، ومرسى يقال له مرسى دنهاجة، وهذا البلد عامر كثير الأشجار والثمار وهم فى جبال وعيون"- (كتاب البلدان ص ٦٨).

إلا أن قبيلة "دنهاجة"- لظروف سياسية أبرزها جور ضرائب الموحدين ومجيء المد العربى الهلالى فى القرن الثانى عشر. اضطرت إلى الانتقال من المنطقة إلى المغرب الأقصى، وأقاموا فى "قصر عبد الكريم".

ذكر الإدريسى والبكرى أن ملوك المغرب كانوا يزورونه على ذلك العهد، غير أن أحد أبناء تلك القبيلة الذين هاجروا إلى الأندلس طلبًا للعلم، عاد واستوطن الجزء الشرقى من حوض الوادى الكبير مكونًا مع أبنائه قبيلة "أولاد عيدون"، التى لعبت أدوارًا فكرية وسياسية هامة،

خاصة فى العهدين العثمانى والاستعماري.

سكنت "أولاد عيدون" الضفة اليمنى للوادى الكبير، وهى منطقة استراتيجية بالشمال القسنطينى بفضل طابعها الجبلى وتوسطها لأهم المراكز الحضرية، مثل: جيجل، ميلة، قسنطينة، سكيكدة والقل. تحدها شمالا قبيلة "أولاد عطية" و"جبال الرحمن" (مشاط وبنى فرقان)، وجنوبا قبيلة "أولاد مبارك"، "تاسقيف" و"بنى خطاب"، وشرقا بنى توفوت و"العشايش"، وغربا "أولاد عواط"، و"أولاد علي"، و"بنى خطاب".

وينسب أولاد عيدون إلى جدّهم الأول "العيد" الملقب بـ"عيدون"، الذى استقر على ضفة الوادى الكبير منذ عودته من الأندلس، وكان له سبعة أبناء، ثلاثة ولدوا له من زوجه الأولى وجاءوا معه من الأندلس هم: "قاسم" ابنه الكبير، و"دباب" ابنه الأوسط، و"حناش" ابنه الصغير.

وأربعة ولدوا له بعد نزوله الميليّة وزواجه بامرأة ثانية يقال لها "عرفة"، هم: "العربي"، "عنان"، "علي"، و"براهم"، وهم آباء القبائل الموجودة اليوم بالميليّة، الذين شكل خلفهم على ضفتى الوادى الكبير وواد بوسيابة مختلف العشائر التى تتكون منها القبيلة الأم، وهى تتربع على مساحة تقدر بـ ١٢,٧٨٥هكتار و ١٤آر و٦٦ سنتى آر وهى أراضى ملك.

وينقسم أولاد عيدون إلى فرعين رئيسين هما :

الأول "أولاد قاسم" ويضم: "أولاد على وابراهم"، "أولاد عنان"، "أولاد العربي"، "أولاد على بن عرفة" و"أولاد الصالح"، "أولاد عتيق".

والفرع الثانى "أولاد دباب"، يضم: "أولاد حناش"، "بنى معاندة" و"أولاد بوزيد". وحسب تقرير فرنسى بلغ عددهم ٥٢٦٥نسمة سنة ١٨٩٦م.

وإضافة إلى قبيلة أولاد عيدون صاحبة الأرض التى أنشئت عليها مدينة الميلية، هناك قبائل أخرى تسكن المنطقة، هى قبيلة "بنى فرقان"، "مشاط"، "أولاد عواط"، "أولاد بوفاهة"، "بنى بلعيد"، "بنى مسلم"، "تايلمام"، "بنى عيشة"، "أولاد علي"، "بنى خطاب"، "العشايش"، "بنى تليلان"، "بنى فتح"، "أولاد مبارك"، "تاسقيف"، "بنى صبيح". وكلها تنتمى إلى المنطقة الشرقية من ولاية جيجل.

وفى ١٤ فيفرى ١٨٧١ هاجمت قبيلة أولاد عيدون المركز الفرنسى الواقع بالميلية، ودمرته عن آخره، وحطموا قنوات مياه الشرب وقطعوا أسلاك الهاتف، ما أدخل الرعب فى قلوب الفرنسيين وأعوانهم.

وللقضاء على هذه الثورة، أرسلت فرنسا الجنرال "بوجي"(Peuget) يوم ٢٧ فيفرى ١٨٧١ م على رأس قوات ضخمة برية وبحرية لفك الحصار على الميلية، وبعد معارك طاحنة تلقى العدو خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد، ولم يتمكن "بوجي" من السيطرة على الثورة إلا بعد وصول النجدة التى أرسلت له.

ومن الجرائم التى ارتكبها الفرنسيون فى تلك الفترة هدم وحرق

المنازل وقتل النساء والأطفال والشيوخ والعزل وإبادة فرع أولاد حناش من أولاد عيدون من الوجود، والسطو والنهب لأموال وممتلكات السكان وفرض الحصار الكامل على المنطقة والقبض على أزيد من ٤٠٠ مواطن ونفى أكبر عدد منهم إلى جزيرة "الثعابين" بالمحيط الهادى (تعرف حاليًا باسم جزيرة "كاليدونيا").

وتبقى ثورة أولاد عيدون ملحمة شعبية تتناقلها الأجيال وتقتدى بها فى التصدى للاستعمار الغاشم، وقد تجلت فى الفاتح من نوفمبر ٥٤ المجيدة.

وقد حاول الاستعمار فرض سيطرته على المنطقة، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد ثورة ١٨٧١، رغم إقامة المركز العسكرى بها منذ ١٨٥٨.

وشهدت بلدية الميلية حركة استيطان واسعة بعد ثورة ١٨٧١. ومع تزايد حركة الاستيطان، ومصادرة الأراضي، سيطر المستوطنون الذين يمثلون ٤٨, ٠٪ من السكان، على ٣٩٪ من الأراضى والغابات، بينما الأهالى الذين يمثلون٥٢, ٩٩ ٪، يمتلكون ٦١ ٪ من الأراضي، أى أن نصيب الفرد الجزائرى من الأرض لا يتجاوز ٥٢, ٠ هكتارًا، ونصيب الفرد المستوطن ٢٠, ٧١ هكتارًا.

وفى سنة ١٩٥٧ أصبحت الميلية مقر دائرة، تضم العديد من البلديات، منها: سطارة، العنصر، سيدى معروف... وتعتبر من أهم معاقل الكفاح التحررى أثناء ثورة نوفمبر، وساهم طابعها الجبلى وغاباتها الكثيفة فى تميزها بهذا الدور، وشهدت إنشاء أول منطقة

محرمة فى الجزائر سنة ١٩٥٧.

وقد أنجبت المنطقة العديد من الشخصيات البارزة والأبطال منهم: العلامة مبارك الميلي، على بن عيسى، الشيخ أحمد حماني، الشيخ محمد الصالح بن عتيق، مسعود بوعلي، الشهيد محمد سعيداني، الشهيد محمود بلارة، وغيرهم ممن قدموا خدمات جليلة، كل بطريقته الخاصة، من أجل الجزائر.

***

الفصل الثاني

فى تلك القرية الساكنة سكونًا أبديًا بين سفوح الجبال الشامخات الشاهقات... تلك القرية المعزولة عن المدينة والصخب، ما زال النمط القديم معشعشًا فى رؤوس سكانها مهما وصلتها الحضارة.

فمثلا، رغم وصول الماء للبيوت عبر الأنابيب، إلا أن النسوة يفضلن التوجه إلى النبع لملئ الأوانى بالماء بحجة أن مياه الحنفيات غير صالحة للشرب ومذاقها غير مستطعم... لكن فى الحقيقة يفعلن ذلك للالتقاء وتبادل الحديث والنكات والترفيه عن النفس.

ورغم وصول الغاز أيضًا، ما زالت النسوة هناك يذهبن للغابة لجلب الحطب لتحضير الكسرة.../ ***خبز جزائرى منزلى تقليدى لا يستطعمه سكان الأرياف إلا إذا طهى على الحطب وفى طاجين فخارى تصنعه النسوة الأرامل يدويًا باستعمال الصلصال.***/

وقد يتسائل أحدنا: لم الأرامل بالذات؟

ببساطة لأن هناك خرافة تقول أن المرأة المتزوجة لو صنعت طاجينًا طينيًا سيموت زوجها، وهذه واحدة من مئات الخرافات التى كانت تملأ الدروب والبساتين والمساجد والمقاهي...

تلك الخرافات التى ترافق الإنسان من مهده إلى لحده، تعشعش فى رؤوس الناس فيؤمنون بها وتتجسد فى سلوكهم وحياتهم اليومية بشكل طقوس وعاددات وتقاليد... وإن أصيب أحدهم بمرض أو اكتآب أول

ما يراود فكرهم هو السحر والعين و... فيذهبون مباشرة للمشعوذين والدجالين ممن يسمونهم (مُرَابِطِينْ وطَلْبَة)...

وهذه الفئة هى أكبر مصنع ومورد للخرافة بين الناس حتى تستغل سذاجتهم وسخفهم فى سلب أموالهم، وكذا لتحظى بمكانة اجتماعية مرموقة وقدر عال ونوع من الزعامة والكاريزما الروحية...

ومن أكثر الخرافات انتشارًا:

- الاعتقاد بأن الخرزة الزرقاء ترد عيون الحساد.
- تعليق اليد (خمسة) كما تسمى أو حدوة الحصان على مدخل البيت يجلب الحظ ويبعد الشر.
- حرق الشعير يبعد الحسد عن الناس، أو عندما يكون الشخص "محسودًا" يحرق له الشعير .
- التشاؤم من البوم.
- رمى الملح على عتبة البيت لكى لا يتحقق الحلم المزعج .
- رمى سبع حبات حصى وراء ظهرك كى لا تعود للمكان الذى لا تحبه.
- إطعام العروس شيئًا حلوًا لحماتها لكى تتحابا .
- تناول العروسين قلبًا مشويًا ليلة الزفاف حتى يؤلف بين قلبيهما .
- الدخول بالرجل اليمنى للسكن الجديد، ووضع الحناء فى أركانه.
- فتح كل الأبواب النوافذ والأدراج داخل غرفة النوم ليلة الزفاف حتى تسهل عملية أول إتصال، والمضحك أن باب الغرفة والنافذة مغلقان طبعًا.
- بعض الطقوس الغريبة فى المآتم والأعراس والميلاد.

والبشر أنواع فى تصديقهم للخرافة :

- إنسان ساذج وديع يصدق فعلا الخرافة يعتقدها ويعتنقها .

- إنسان لا يصدق الخرافة لكن يصعب عليه الاعتراف علنًا بأى تفسير منطقى أو عقلانى يعارض ما توافق عليه أفراد الجماعة... فهو يدرك نتائج الخروج على المجتمع أو مخالفة اعتقاد توارثته الأجيال فيتظاهر بالتصديق.

- إنسان لا يصدق الخرافة لكن يقنع غيره بها ويروّج لها (رغم علمه بعدم صحتها) لأنها ببساطة تحقق له منفعة مادية أو مكانة اجتماعية.. كالمشعوذين والسحرة، أو تنقذه من ورطة أو فضيحة... وأذكر هنا ما تتناقله العجائز عن أيام الاستعمار والثورة الجزائرية أو بعد الاستقلال بقليل، حيث كان الرجال يغيبون كثيرًا عن بيوتهم سواء كمجاهدين فى الجبال أو يسافرون للعمل بفرنسا. وهنا إن وقعت إحدى النسوة فى الخطيئة ونتج حمل غير شرعى تغطى تغطى فضيحتها بحيلة ذكية (خرافة الجنين الراقد) وتدعى أن الجنين مكث فى بطنها من يوم كذا،،، لكنه كان نائمًا فلم يولد فى وقته وتصل فكرة النوم هذه إلى السنيتن، وكن يسمين هذه الحالة (بو مرقود)... فقد يغيب الرجل أكثر من سنة وتلد زوجته بغيابه وتنطلى عليه الحيلة بسذاجة.

لكن الغريب فى النسوة كيف يسكتن؟... هل يصدقن أم يتواطأن لاحتمال احتياجهن لهذه الحيلة مستقبلًا؟

***

فى إحدى البيوت الريفية داخل هذه القرية التى لا يميزها شيء عن باقى القرى والمداشر إلا لهجة سكانها التى تختلف من منطقة لأخرى.

والمضحك أن كل قرية تسخر وتضحك من لهجة جارتها وسكانها، معتقدة أنها أرقى وأكرم وأشرف وأسمى القرى ...

كانت تقيم عائلة "عمى أحمد" ذلك المجاهد المنسى من التكريم أو التشريف، فقط لأنه مجاهد حقيقى وتشهد أسوار السجن على ما تجرع من عذاب، وما زالت أثار اللحم المقتلع من يديه ورجليه واضحة.

فلطالما أحاط به أحفاده وبدأ يروى قصص الثورة وبطولاته الحقيقية والخرافية، وكيف كان الاستعمار الفرنسى يتفنن فى تعذيبه.

***

جاء الخريف بريحه وبهتان لونه وأوراقه المتناثرة هنا وهناك تلهو به يد الهواء على دروب وعرة وسالكة، عدا شجرة عريقة جذورها ضاربة فى أعماق التاريخ وأغصانها شامخة لعنان السماء واسمها مقدس فى الكتب الثلاثة.

لا تتساقط أوراقها على مدار الفصول، هى شجرة الزيتون التى تنضج ثمارها فى بداية الخريف... فصل العمل والكد لكنه عند النساء أيام عيد وسعادة رغم التعب والمعاناة، إذ تخرج النسوة باكرًا لجمع ثمار الزيتون ولا تعدن إلا قبيل المغرب بقليل...

ومن العادة أن تظل امرأة بالبيت لتقوم بأعمال التنظيف والترتيب والطبخ...

كان يومًا خريفيًا باهتًا... الريح تصفر فى الخارج، وكانت وحيدة فى البيت بينما الرجال فى المدينة... والنسوة: زوجة أبيها وزوجات إخوتها خرجن لجنى الزيتون ولن يعدن إلا المغرب...

طرق الباب.

الوقت منتصف النهار وأنغام عبد الحليم تنبعث من المذياع،...

دخل كالمتلصص، شخصَت عيناها: ماذا يفعل هنا ودون استئذان؟

هو أيضا عندما رآها تبدل لونه كأنه تفاجأ بالوجه المناوب اليوم.

- قال لها: أنت التى بقيت فى الدار اليوم؟

- أجل أنا لأقوم بتحضير الخبز، وليلى كما تعلم بنت مدينة ولا تعرف الطبخ على الحطب...

- حدثت نفسها: ما الذى جاء به وهو يعلم أن الكل غائب؟ ثم من

أين يعلم أن ليلى هى التى كانت ستبقى...؟/ *ليلى هى زوجة أخيها الأصغر.*

قطع صوته هواجسها:

- هل من غذاء؟

- أجل تفضل اجلس، سأحضر الأكل حالاً...

لكنه لم يجلس بل لحق بها إلى المطبخ وظل يتفرج عليها بشراهة... شتان بينها وبين ليلى التى تتقاطر جمالاً وفتنة بجسدها البض الممتلئ ووجهها الفاتن... بينما هذه العانس الشمطاء عظم على جلد، شَعر أشعث ولون كئيب شاحب...

وضعت أمامه صحن شوربة اللوبياء الساخنة باللحم وزيت الزيتون، وخبز بيتى ساخن وحبة برتقال.

قال جاذبًا يدها:

- تفضلى إجلسى تناولى الطعام معي...

- قالت فى خجل: لا لا.. بصحتك، سآكل فيما بعد.

تركته فى المطبخ يأكل وجلست فى الصالون تطوى الملابس.

كان يأكل ويفكر فيها:

- هى ليست بجمال ليلى وفتنتها، لكن رغم قبحها تتمتع بمسحة جمال باهتة، فالنساء كالفواكه كلهن جميلات مهما اختلف لونهن وذوقهن... لعنة الله على الشيطان، ليلى امرأة متزوجة لن تنبس ببنت شفة خوفًا على شرفها وزواجها، فمن يوم... أصبحت كالعجينة فى يدى أشكّلها كما شئت أطؤها متى شئت وكما شئت

وأينما شئت و لن تتجرأ على الكلام... ثم أنها تنتشى وتذوب متعة بين يديا، لم تعرف ذروة شبقها إلا معي/ هذا ما قالته/ إنها تتمتع أيضا فلا غنى لها عني، هههه ذلك البغل زوجها يرميها بوحشية على ظهرها ويرتمى عليها مفرغا فضلاته اللزجة فى جوفها الحميمى فى ثوان، ثم ينهرها لتحضّر له قهوة ينتشى بها مع سيجارة كتحلية... هههههه... هههه، مسكينة كانت تستغرب ما يعجب النسوة فى الزواج وكله ألم وقرف إلى أن ذاقت اللذة على يديّ... أظننى سأكسب حسنات، فالمذنب زوجها البغل الذى يطؤها كالجحش... لكن هذه عذراء وستجلب لى المتاعب... لكن أى متاعب؟... سأداعبها لن أفض بكارتها...

جلس بجانبها ومد يده حاملًا يدها بين راحتيه... فأحست بتيار كهربى يسرى فى جسدها ودوَار يغشاها، ربما خوفًا أو خجلًا أو رغبة...

لمَ لا؟ لمَ ليست رغبة، وهى العانس المحرومة من الحب والحنان؟

يغشى الليلُ القرية فيسكن أبوها لزوجته، وإخوتها كل لحضن امرأته، تغلق كل الأبواب من المغرب، إلا بابها لأنها مجرد عانس وليس لها الحق فى غرفة خاصة ولا سرير، بل تنام وحيدة فى الصالون، أنيسها بعض المسلسلات المصرية أو المكسيكية المدبلجة التى تزيدها لقطاتها الساخنة رثاءً لحالها وحرمانها، وتزيد جوعها وعطشها التهابًا لذلك العالم الساحر خلف أبواب غرف النوم، وذكريات أمها، وذكريات حبها الوحيد...

"جمال" الشاب الذى أحبها رغم جمالها الضئيل... وتقدم لطلب يدها رغما عن أمه، لكن أبوها رفض ليس إلا لأن قريتهم أشرف وأغنى

من قريته حيث تعود جذورها وأصولها لأحد الأولياء الصالحين ولا تزاوج بين القريتين.

وأعدم الحب الوحيد والخاطب اليتيم، وظلت من يومها عانسا تنصت إلى حكايا العشق والجنس من نسوة إخوتها وتعمل لهن ممرضة فى فترات الوحم والوضع، وتتلصص ملتقطة السمع لهمساتهن وضحكاتهن وهمهماتهن وشهقاتهن خلف الأبواب الموصدة ليلًا وحتى فى جهار النهار وقيلولات الصيف الملتهبة...

كان فكرها يغوص فى آلامه الموجعة بينما يده تغوص تحت ثيابها مداعبة أكثر المناطق حساسية فيها...

وفى لحظة من العمى الروحى والسطو الغرائزى البوهيمى الذى غيب وعيها عنها، لم تحس إلا وهى تساعده فى احتلالها وتسلمه مجانًا أحصن قلاعها ظنًا منها أنها محصنة بذلك الوشم السحرى على فخذها المسمى "التصفيحة"../

والتصفيحة وشم سحرى تقوم بعمله النسوة والعجائز على أفخاذ البنات بأعشاب خاصة وبتلاوة كلام خاص، ويقال أن لا أحد يتمكن بعد ذلك من فض بكارة البنت.

وتفتح التصفيحة ليلية الزفاف بذبح الوشم وتلاوة تلك التراتيل معكوسة.

فيوم التصفاح تقول البنت: أنا حيط والرجل خيط، ويوم إلغاء التصفيحة تقول: أنا خيط وولد الناس حيط / .

سحر التصفيح للبنات هو نوع من أنواع الربط للفتيات تقوم به بعض الأمهات الجاهلات فى بعض البلدان الإسلامية والعربية

للحفاظ على بناتهن حتى تظل الواحدة عذراء إلى أن تتزوج، ثم تذهب الأم لتفك عنها السحر، ويعتقد أن الجن يقوم فيه بسد موضع الجماع عند المعاشرة./

والغريب أنه كثيرًا ما تفض بكارة الفتاة بسبب اعتداء وتحمل، لكن أحيانًا يصعب ذلك على الزوج الشرعى حتى بعد فك السحر...

فيبقى التساؤل مطروحًا: هل عدم قدرة الزوج على فض بكارة الزوجة يكون بسبب ضعف جنسى وكان سيحدث حتى لو لم تكن مصفحة؟، وقد يكون سببًا نفسيًا لا شعوريًا لعلمه المسبق بالتصفاح؟

قد يكون البسبب سماكة غشاء الفتاة... (يرى د. المنذر القرمازى الأخصائى فى طب النساء والتوليد، أن عملية التصفيح ليس لها من الصحة إلا فى أذهان أصحابها. وعلميًا فإن غشاء البكارة لدى الفتاة يفتض بمجرد دخول أى جسم حاد.

أما ما يقال عن عجز العريس عن معاشرة عروسه فذلك يعود أولًا لأسباب نفسية، فالعملية الجنسية كلها تتم بأمر من الدماغ، بالتالى إذا كان الرجل فى حالة نفسية متوترة وغير مستعد، لن يستطيع القضيب الذكرى الانتصاب جيدًا، فتصبح عملية الإيلاج وفض البكارة مستحيلة.

من جهة ثانية هناك فتيات خلقن بغشاء سميك أو مطاطى مما يصعب على الرجل فض بكارتهن).

***

تحولت إلى إنسانة كئيبة حزينة تأكل بلا شهية ولا تضحك إلا نادرًا. تقوم بأعمال البيت كالحمار وتسلتقى نائمة على بطنها دافنة وجهها فى المخدة كأنها تخاف أن تبوح ملامحها بسرها الكبير.

وكم تمازحت نسوة إخوتها الثلاث مستهزآت:

- أصبحت تنام كثيرًا، ربما هى تتوحم وينفجرن ضاحكات...

ومن كان يحنو قليلًا عليها هى زوجة أبيها التى حاولت الاستفسار عن سرها وحزنها، بينما تنكر هى وجود أى سبب.

وجلست النسوة حول الموقد لتحضير (البغرير أو الغرايف).../

طبق تقليدي يحضر صبيحة الأعياد، وهو نوع من الفطائر تؤكل بالزبدة والعسل، ويمنع الأطفال من المشي حتي ينتهي التحضير، لأنه إذا مشي أحد ستخرج أثر رجل في سطح الفطيرة وتشوهها- هذا ما تقوله الخرافة طبعًا .

كان الأطفال فرحين مرحين بثياب العيد والألعاب والحلوى، والكبار يتبادلون القبل والتهاني، إلا هى تعيش فى عالم آخر ودنيا غير دنياهم.

وضعت صينية الحلوى والحليب والقهوة والمشروبات على شرف عمتها القادمة لزيارتهم بمناسبة عيد الفطر.

نادتها عمتها:

- أرواحى تتقهواى معانا ياطفلة، أنت ماكيش عاجباني...

ثم التفتت لزوجة أبيها قائلة:

- مابها مصفرة الوجه هالات سوداء حول عينيها، غدت كالشبح ككومة عضام؟

- لا أدرى يا أختي، من وقت الزيتون وهى على هذه الحال الغريبة، وكلما سألتها قالت لا شيء.

- الفتاة بيها عين أو مس يجب أن ترقوها.

- إرتدى حجابك وهيا بنا عند الحاجة فاطمة .

جروها كالبقرة بل كالعنزة...

الشيخة فاطمة تحمل سبحة بين أصابعها وتقول كلامًا غريبًا ماسحة جبينها، وإذا بالفتاة تقع مغشيًا عليها لقلة النوم والأكل والتوتر والخوف من الآتي.

- إنها ممسوسة ويجب أن اعمل لها عدة جلسات لطرد الروح الشريرة.

عندما قالت العجوز هذا، كادت تضحك من سذاجة من صدقوا بأنها مسحورة... لكن غددها عاطلة عن إفراز هرمون الضحك.

كما أن المشعوذة المدعية لم تكذب هذه المرة، فهى فعلًا تحت تأثير سحر لكنه سحر من نوع آخر تتجاهله الآلهة المدعية تنزهًا عنه، إلى أن ترمى بحجارة من شهوة فتكسر، لأنها آلهة من زجاج...

وبرغم مستواها الدراسى البسيط إلا أنها أقامت الحجة على كذب المشعوذة الدجالة، وتذكرت حادثة ابن الجيران الذى حملوه لها فقالت أنه مسحور، وظلت تشعوذ وتدعى حكمة وحنكة وتسمم جسمه بعقاقير

وسموم إضافة إلى سموم أخرى سبق أن أدمنها، إذ أكتشف أخيرًا أنه مدمن مخدرات...

كما تذكرت ابنة عمها زينة التى حملوها لها لتخبرهم عن سبب تأخرها عن الحمل، فعادت غاضبة وأسرت لها بأن العجوز كذابة ومنافقة، إذ مافعلته كان عبثًا بمناطق لا يعبث بها وعملا ينم عن شذوذ، وأن العجوز تلبى حاجتها بطريقة خبيثة معاكسة للفطرة مدعية فحص النسوة.

والأسخف أنها تكافؤُ بمال وهدايا من قماش وعطر وصابون وإفطار شهى جرت العادة أن يكون طمينة بعسل النحل/

حلوى جزائرية تقليدية عبارة عن طحين محمص يخلط بالزبدة والعسل.

يومها لم تصدق كلام المرأة واعتبرتها بنت مدارس ملعونة تلسن على امرأة صالحة وحذرتها من أن تصاب بمكروه خطير إن واصلت هراءها.

وكم من مرة تكررت لقاءاته بها كلما خلت الدار من أهلها، ويهددها بأنه سيفشى السر إن لم تطاوعه فهو لن يخسر شيئا أما هى فستذبح أكيد.

***

كان الجميع نيامًا عندما بدأت تصرخ من شدة الألم الذى يقطع أحشاءها، صرخ والدها:

- أسرعوا خدوها للمستشفى .

- قال أحد إخوتها: من سيتجرأ ويحملنا بسيارته للمدينة فى هذا الوقت وحواجز الأمن والإرهاب تملأ الطرقات، فإن سلمنا من سكاكين الإرهاب لا نسلم من رصاصة طائشة من الذرك.

- هل ستتركون أختكم تموت يا أشاباه الرجال؟... ألا لعنة الله عليكم.

وأخيرًا تبرع أحد الجيران بحملها للمستشفى، وظلت طول الطريق تصرخ من الألم وزوجة أبيها تواسيها وما كانت تدرى ما بها، وأخوها لا يجد إلا أن يقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله كل شبر حاجز. يارب لا يكون حاجزا مزيفا، يارب استرنا من الإرهاب ومن الرصاص الطائش للجيش أو الدرك.

- وزوجة أبيها تردد: ياربى استر، يا ربى كن معانا...

(فى عام ١٩٩١م، عاش الشعب الجزائرى حوالى عشر سنوات من القتال بين النظام الجزائرى والإسلاميين بعد إلغاء نتائج الإنتخابات البرلمانية التى أسفرت عن فوز الإسلاميين، بعدها فعلت الجبهة جناحها العسكرى وشنت حملاتها ضد الجميع مما هدد استقرار البلاد ووحدة الوطن وحياة الشعب.

انطلق مسلسل سفك الدماء والمذابح التى استهدفت المواطنين الأبرياء: إبادة قرى وأحياء ومداشر بأكملها، وأصبح مشهد الجثث بالآلاف... اطفال ونساء وشيوخ ورجال. وتركت الفتيات والنساء الدراسة أو العمل خوفًا على شرفهنّ وحياتهنّ، وعاش الناس كابوسًا مستديمًا.

لو لعب طفل بإشعال الضوء وإطفائه يعاقب بالضرب لأنها قد تفهم من الأمن أنها إشارة لإستدعاء الإرهابيين أو الإتفاق معهم، ومن هنا قد يصبح صاحب البيت مسجونًا أو وراء الشمس بتهمة التعاون مع الإرهاب...

تُطفأ الأنوار من المغرب وتَخفت الأصوات، وامتنع الناس عن الضحك، وحتى بكاء الرضع كتم فلا تسمع إلا نباح الكلاب ممزوجًا بصوت المطر والريح شتاء أو بصوت الصرصور صيفًا، وغدت المنازل سجونًا بأبواب حديدية ونوافذ مشبكة، سلب الإرهاب الصغار براءتهم واغتصب طفولتهم، يتم وشرد، رمل ونكل ومثّل...

نزح المواطنون إلى المدن مبتعدين عن القرى التى أصبحت خاوية على عروشها، فبارت الأراضى الزراعية وأهملت الثروات الطبيعية (كالزيتون مثلاً)، فمن يجرؤ على جنى الزيتون فى الجبال والغابات فقد تدخل قائمة المحكوم عليهم بالذبح... وتفشت عمليات السرقة من طرف الإرهابيين أو اللصوص الذين استغلوا الوضع بالادعاء أنهم جماعة إسلامية للسطو على أموال الناس وذهب النساء.

وهكذا وقع المواطن بين المطرقة والسندان، الإرهاب أمامه والأمن وراءه، فعاش رعبًا حقيقيًا بين الخوف من الإسلاميين الذين

يهددون الناس بترك وظائفهم الحكومية لأنها دولة الطاغوت، ويهددون أصحاب المحلات بالسلاح لإعانتهم بالمواد الغذائية والملابس والأغطية والمال والمواشي... وبين الخوف من اتهام الأمن لهم بأنهم إسلاميين وإرهابيين أو عملاء لهم.

اختلط الحابل بالنابل وأصبح من الصعب التمييز بين العميل بإرادته والمضطر خوفا على حياته وعائلته...

وكم من بريء ذهب ضحية الخطأ، وكم من قاتل حصل على محل أو منصب عمل بعد نزوله من الجبل لإعادة إدماجه فى الحياة المدنية من خلال إجراء الوئام المدنى (مشروع اصلاحى اقره الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بعد توليه الحكم فى ١٣ يوليو سنة ١٩٩٩ يشمل العديد من المواد للنهوض بالبلاد من حالة اللا أمن وإقامة مصالحة وطنية شاملة تمحو آثار العشرية سوداء).

ونسى الجزائرى طعم الفرح، فأعراسه صامتة بلا غناء أو سهر، حتى المآتم صامتة، و دفن الميت يتم تحت الرعب والخوف من هجوم جماعة مسلحة على المقبرة والتنكيل بمن فيها وتحويلهم من رثاة إلى مرثيين...

دام هذا الوضع تقريبا عشر سنوات تداول خلاله على السلطة عدد من الرؤساء، هم محمد بوضياف على كافى الذى لم تدم مدة حكمه فترة طويلة، وصولا إلى اليامين زروال، عملوا على إخماد نار الفتنة بإدخال إصلاحات اقتصادية لتحسين الظروف المعيشية

للمواطنين وبالتالى ضمان السلم والأمن والاستقرار.

لكن أغلب المحاولات باءت بالفشل لعدم توفر قاعدة صحيحة لتلك الإصلاحات وبناء استراتيجة متينة للحوار مع الجماعات الإرهابية والنهوض بالبلاد من الدوامة التى اتت على الأخضر واليابس .

ومهما كانت الجهة المسؤولة عن نشوب العنف وصناعته وتغذيته: إسرائيل- أمريكا- الإسلاميون المتطرفون- العصابات...، فإن هذا المرض الخبيث لن يتكاثر وينتشر إلا فى التربة المناسبة له وهى المجتمع الذى يعاني: الفقر، المرض، التسرب المدرسي، التهميش والإقصاء، الإستغلال، المحسوبية، التمييز...

فذلك المواطن المحبط اليائس البائس المحروم من كل متع الحياة وضرورياتها، المليء بالكره للحياة والأفراد، لا فرق عنده بين حياة وموت، وربما فكر فى وضع حد لحياته لكن تردعه فكرة الموت كافرًا، يأتى من يقنعه بالجهاد والشهادة والبطولة فيجد له الاحترام والمكانة وربما شيء من الزعامة، وتتاح له فرصة الانتقام من المجتمع الظالم (المظلوم) ورد اعتباره والثأر لكرامته، فينصاغ مخدرًا مسلوب الإرادة.

لو كان هذاالإنسان على وعي، ويعيش حياة كريمة تضمن له شيئا من الكرامة والحرية فلن يسهل استغلاله وتجنيده من أى جهة كانت.

***

- أووووفْ كمين الدرك الوطني- قال السائق.

- الله يس... قال أحد إخوتها .

لم يكمل جملته إلاَّ وانهالت عليهم طلقات من الدركيين ظنًا منهم أنها مجموعة إرهابية...

تمنت حينها لو أصابتها طلقة أراحتها مما ينتظرها من عذاب وألم وربما موت، لكن تجرى الرياح بما لا تشتهه السفن، وعندما يصبح الموت أمنية فإنه يتدلل ويتعزز ويتكبر ويظل يتفرج على معاناتك وآلامك ويفنيك بالتقسيط المريح بل الممل، فتموت ألاف المرات ألما وحزنا وخوفا، ومن الخوف ماقتل .

وصلوا المستشفى محمّلين بمريضة تتلوى ألمًا فى بطنها وتصرخ، وجريحين اخترق الرصاص جسديهما بلا ذنب، إلا أن أقدارهما دفعتهما لمغادرة ديارهما وقطع ذلك الطريق المنحوس فى تلك الساعة اللعينة فى نقطة زمنية ما.

فهل هى الصدفة أم الأقدار؟... تساؤل لا جواب له..

أدخل الجريحين الإنعاش، وحملت هى إلى الاستعجالات... بعدها تم تحويلها إلى القسم النسائى تحت دهشة واستغراب زوجة أبيها وأخيها الذى ولحسن الحظ أو سوءه لم يصب، بل أصيب أخوه الأصغر والسائق المسكين الذى أراد خيرا فكان الشر متربصا به .

- قال: القسم النسائي... ماذا هناك؟

- الطبيب: لأن الجنين فى خطر و...

لم يكمل جملته حتى ذهل الجميع صرخ:

- جنين؟... هل أنت سكران لعنة الله عليك ..

- ما هذا الجنون، ألا تعرفون أن السيدة حامل وفى الشهر السادس...؟

استيقظ من ذهوله على صدمته، سمع وفهم لكن عقله الباطن كان يوهمه بأنه لم يسمع جيدًا...

لكنه سمع ماذا يفعل؟... لم يدر إلا وهو يهجم عليها وخنقها صارخا:

- قذرة منحلة وسخة قاتلك أنا... وهنا تدخل أمن المستشفى لإنقادها من يديه .

- قال الطبيب: أطلبوا الشرطة يبدو أن الفتاة عزباء...

ومن الغريب أنها كانت تطلب الموت ليل نهار، إذ اتضح بعد الفحوصات أنها تناولت شيئا ساما محاولة الانتحار، واعترفت أنها تناولت محلول ماء الأكسجين المستمل فى صبغة الشعر. لكنهم أنقدوها والجنين كان بخير أيضا إلا أنها يجب أن تبقى فى المستشفى إلى تمام الشهر السابع حيث سيجرون لها عملية قيصرية.

- ترى، لم تحاول الخاطئة الانتحار رغم علمها أنها ستموت كافرة فتصلح ذنبًا بكبيرة؟

- لا أظن أن ذلك خوفًا من الله ولا من القانون، بل من وحش يسمى المجتمع، فها هو الإثباث المادى أن سلطة المجتمع أقوى من سلطة الدين والقانون، وها هى تفضل نار الخالق على نار المجتمع...

وبالمقابل لم يسجل التاريخ البشرى حالة انتحار رجل مخطئ، مع أن عقاب الله نفسه وعقاب القانون نفسه إن وجد كحالات زنى المحارم والقصَر... لكن المجتمع لا يسلط عقابًا على الرجل، ومن هنا الفتاة تنتحر والرجل يتباهى بفحولته ورجولته.

عادوا إلى المنزل متخشبين كأجساد متحجرة بلا روح ولا أحد ينبس ببنت شفة أو يجرؤ على وضع عينه بعين الآخر.

- سأل الوالد: أين أختك و أخوك؟ إنطقى يا امرأة أين الأولاد؟ لم لا تتكلمون؟ ماتت أختك؟ ياويلتى على ابنتى المسكينة يا...
- ياليتها ماتت ياليتها فعلت- صرخ ابنه .
- ماذا تقول أجننت؟
- جلبت لك العار عاهرة ساقطة وضعت رؤوسنا فى الطين.
- ماذا تقول يا ابن اللعينة؟
- لا لعينة إلا هذه...

ووجه أصبع الاتهام لزوجة أبيه...

- أكيد كنت تعلمين بأمرها وتتسترين يا كلبة.
- كيف تكلم أمك بهذا الأسلوب ياعديم التربية ؟
- ليست أمى ولن تكون، أمى تحت التراب... وتتظاهر الآن بالغباء... ابنتك حامل تنتظر حفيدا ربما سنسميه على اسمك ...

ظل الشيخ مشدوهًا فاغرًا فاه، أما الآخر فأكمل:

- وابنك المسكين فى غيبوبة قد يموت دون معرفة الخبر السعيد،

دون معرفة سبب جريه للمستشفى وإصابته برصاصة الدرك...

لم يتحمل العجوز المسكين الخبر، ما عادت أعصابه المنهكة تحت وطأة قرن إلاربع من السنين ومعاناة سبع سنين كمجاهد ضد الاسعمار الفرنسى تحتمل الصواعق وأى صاعقة، صاعقة شطرته نصفين، شلل نصفى بسبب ارتفاع ضغط دمه وإصابته بجلطة دماغية ...

وأصبح أخويها الآخرين حزينين ملتحيين قابعين فى المنزل كالنساء، فبأى وجه سيقابلان سكان القرية.

وبرغم أنهم لم يفتحوا فمهم بكلمة إلا أن الخبر شاع فى القرية كالنار فى الهشيم، فكما يقال: (أترك الخبر فى الدار تجده سبقك للسوق). فنبذهم أهل القرية وحتى عند وفاة أخيهم متأثرًا بجراحه لم يهرع لتعزيتهم ومواساتهم إلا القليلون وخفية عن الباقى .

أما زوجة السائق فظلت تدور فى القرية شاتمة شاكية باكية، قائلة أن ابنتهم العاهرة هى سبب إصابة زوجها وقبوعه فى البيت بلا عمل وتجويع أبنائه.

وعندما ردت عليها إحدى النسوة بأن ماحدث كان قضاء وقدر شتمتها واتهمتها بأنها تدافع عن عاهرة. فتدخلت أخرى قائلة:

- اليوم تقولين أن ابنتهم سبب ما حدث لزوجك، لكن يوم صدم زوجك ابن أخى وكسر رجله كنت تقولين أن ما حدث كان مكتوبًا.

وهكذا كان كل يوم ينشب جدال بين النسوة يؤدى إلى شجار وكلام فاحش... ينتهى بأن من تدافع عن عاهرة هى من طينتها.

وحمَّلت نسوة القرية وقريبات الفتاة من عمات وخالات وأختها الكبرى كل المسؤولية لزوجة أبيها مدعين أنه لو كانت أمها لانتبهت لها أو على الأقل كشفت أمرها من أول شهر، فتخلصن من الجنين دون افتضاح الأمر.

وكم تاهت أختها فى تفكير يكاد يجعلها تكفر بكل معتقداتها، فهى متزوجة منذ خمس سنين ولم تحبل وأختها من لقاء عابر فى الحرام تحمل وستأتى بمخلوق حكم عليه باليتم والتشرد واللعن دون ذنب.

ما أغرب الحياة وما أقساها. وكم من مرة تساءلت بينها وبين نفسها فى فضول وشبق عن ذلك الفحل الذى زرع بذرة مثمرة فى لحظات.

***

سميحة فى المستشفى تعانى آلامًا نفسية مبرحة، وفى قمة معاناتها عرفت أن الألم النفسى أشد وطأة وقسوة من الألم الجسدي...

فعقدة الذنب التى تشعر بها باتت تسكنها كشيطان لا يفارق فكرها ليل نهار، فما قامت به أو حدث لها/ فهى عاجزة عن تحديد المصطلح ونسبة الخطأ أهى مجرمة أم ضحية؟/ كبيرة لاتغتفر، عهر، خطيئة كبرى وسط آلهة لا تخطئ، بل تسن أشد العقاب مسبقًا لمن سيخطئ لاحًقا، وتغلق كل باب للرحمة والمغفرة.

ترى لو توقع من سن الأعراف وعتقها أنه بشر معرض للخطأ هل كان سيفعل؟

الحياة فى القرية إطار حديدى والناس مجرد صور مشوهة وظلال محبوسة لا يحق لها مغادرة الإطار...

زد على ذلك محاولة الانتحار وقتل روح بريئة مدفونة فى الظلمات تتطلع للنور خارج الغلاف، لم تدر أنها ستلقّب طول عمرها (ببنت إبن الحرام) وأنها ستخرج من ظلام رحيم إلى ظلمات لا ترحم...

ماذنبها... ما وزها... ما اقترفت يداها؟

وكانت عقدة الذنب تتضخم كل يوم وتتعاظم كورم خبيث وتغذيها الظروف:

ها هو والدها يسقط طريح شلل نصفي... ها هو أخوها يموت بعد عشر أيام من الغيبوبة، لمَ يختاره الموت وهو إنسان صالح وأب لثلاث أطفال حلال؟ وتختارها الحياة إذ رغبت عنها وزهدت فيها وهى مجرد

حشرة حقيرة تحمل فى أحشائها بذرة فاسدة موصومة بالذل والعار والمهانة قبل أن تخرج للحياة؟

وهكذا، كلما حاولت الخروج من البئر المظلم الكئيب إلا ودستها رِجل القدر ثانية.

وكانت كلما زادت حالتها النفسية سوءًا كلما تسبب لها ذلك فى اضطرابات "سيكوسوماتية" أشد قسوة/...

فكل اضطراب نفسى أو صراع يؤدى إلى تغير وخلل فى وظيفة الأعضاء الجسدية عن طريق الدماغ والأعصاب و الغدد الصماء، فعلاقة النفس والجسد هى علاقة تفاعلية... وسلامة النفس تؤدى إلى سلامة الجسد واختلالها يؤدى إلى اختلاله ونقص مناعته والعكس.

وحتى الأدوية المخففة للأعراض ممنوعة عنها لأنها حامل، (هههه حامل جنين حرام لقيط يخافون عليه من أثر الأدوية وغدًا سيتجرع سموما بطيئة)... رغم كون تلك الأدوية لا تشفي، فهى تعالج العرض ويظل السبب إلا أنها كانت ستخفف عنها قليلا- كانت تقول فى نفسها.

رغم كل محاولاتها للتخلص مما تحمل، لكن ظلت تلك البذرة القذرة قادرة على التشبث بمصل الحياة وهوائها الملوث بالكآبة والسواد والآلام والأحزان.

وخرجت للنور كائنة ملائكية الشكل زهرية اللون، وحان وقت الفصل، فهم الآن يطلبون منها الإدلاء باسم شريكها عله يلين ويعترف بابنته أو ربما يستيقظ ضميره ويتزوجها.

وأجبرت عائلتها على حضور التحقيق، لكنها كانت كالصنم قد ينطق الجدار وهى لن تنطق، وهنا جن جنون أختها الكبرى فبدأت تشتمها:

- ياحقيرة يا كلبة يا ساقطة ياعاهرة، على من تتسترين؟، ولمَ تسكتين؟، أجيبى من الكلب ابن الكلب الذى فعل معك هذا؟، من الحقير عديم الضمير والمروءة، من؟ حتى نجبره على حمل زبالته.

- صرخت سميحة والدموع تنهمر من عينيها: ذلك الكلب هو... هو... هو زوجك، زووووجك... عرفت عمن أتستر؟ ولأجل من؟ فليحمل زبالته ها هى أمامه...

أنكر زوج أختها واتهمها بأبشع التهم وبأنها تلصق به تهمة لا علاقة له بها....

وأصرت وأقسمت... وأصرّ وأقسم ودعت عليه ودعى عليها، والله كعادته لن يتدخل، يوم القيامة سيحكم... وخدمة تحليل الحمض الريبى النووى (ADN) لم تصل بعد إلى العالم الثالث أقول الثابت لأنه محنّط لا يتغر...

لكن أختها وقفت مع زوجها وكذبتها، وشهدت أنه طوال فترة جنى الزيتون كان بجوار أبيه يجمع الزيتون بقريتهم البعيدة وأخذ إجازة مرضية لأجل ذلك.

كسرت (البينياثا)- كما يحدث فى الحفلات المكسيكية- لكن هذه المرة لم تتساقط الحلوى ليلتقطها الأطفال، بل الأخبار الصاعقة لتلتقطها الغربان الناعقة فى كل مكان وقيل وقال/:

أفشت أختها (كريمَ الأسرار) السّر الأعظم الذى لا يفشى إلا

للضرورة، مؤكدة أن زوجها عقيم وهو سبب عدم الإنجاب وكانت فقط تتستر عليه من الفضيحة ففضلت إلصاق التهمة بنفسها على إفشاء سره وهتك ستره/...

وهكذا أغلقت القضية... وأخذت الطفلة المسكينة إلى أحد الملاجيء... أما هى فاستلمتها عمتها المقيمة بقسنطينة بعد أن هدد أخوها بقتلها.

ووقف أهل القرية بين مشدوه ومذهول وفاغر فاه، بين مكذِب كون الرجل لا يفارق وقتا من صلاته، ورئيس الجمعية الدينية المكلفة بمسجد القرية ومربى أجيال صالح.

فمنذ جاء قبل عشر سنين كمعلم بمدرسة القرية وهو مشهود له بالسمعة الطيبة، وأصبح فردًا منهم خصوصًا بعد أن تزوج من إحدى بناتهم... وبين مصدق لكون لا مصلحة لها فى اتهامه كون الرجل زوج أختها والقضية هى زنا محارم وسيكون مآلهما السجن معًا، وبين مصدق ليس لأنه مقتنع بذلك بل دون أن يتعب نفسه فى التفكير.

أما هو فأصبح دائم الغضب والمشاكل مع زوجته، ودومًا يعيّرها بالعهر والفضيحة ويشكك فى سلوكها قائلًا: ما يدريه أنها شريفة وليست كأختها... ثم طلقها وأرسلها لتخلف أختها فى خدمة زوجات إخوتها، وتزوج بفتاة أخرى وأنجب، مقدمًا دليل إدانته، لكن بعد فوات الأوان.

***

انتقلت للعيش فى بيت عمتها، وقد عادت خادمة ومربية من جديد مع اختلاف رب العمل، إذ أصبحت مربية لأحفاد جدتها وخادمة لكنتها أستاذة الفلسفة بإحدى الثانويات، حيث كانت تعاملها باحتقار وتكبر وعجرفة وتصفها بالعاهرة.

أما عمتها فكانت تحترق ولا تتكلم، تتألم لأجل ابنة أخيها ولا يمكنها خلق الشجار والمشاكل مع كنتها التى ستتهمها بالدفاع عن عاهرة، وكذا بأنها تفتعل معها المشاكل كون زوجها غائب، فكانت تنزف فى صمت وتتعذب فمن يوم سافر ابنها لألمانيا لإكمال تخصصه الطبى وهى تعانى الصمت، تتحمل كل شيء من كنتها ولا تحتج، حتى لا تتهمها بأنها تفعل هذا كون زوجها غائب عنها.

وكذا تلك المسكينة سميحة (إن كان من حقها كلمة مسكينة فحتى هذه الكلمة قد يستكثرها عليها المجتمع) كانت تسحق وتتألم وتنزف داخليا لكنها لا تتكلم بل صمتت لا تنطق إلا نادرا وإن تكلمت فهمسا.

وما كانت تستغربه هو ثقة كنة عمتها بها، كيف تصفها بأبشع الصفات وتنعتها بأقبح النعوت، ثم تعهد إليها بتربية بناتها، فقط للإحتفاظ بذلك المبلغ الذى كانت تدفعه لإحدى المربيات، فسرحتها بمجرد وصول سميحة .

كانت أيضا تستغرب كيف يمكنها أن تعاملها بعجرفة وتكبر وبلا رحمة، وهى تدعى أنها متدينة وترتدى جلبابا ولا تنزع شعر حاجبيها...

ومن سوء حظها أن تجرها الأقدار لتربية ورعاية طفلة لا تتجاوز

أربعة أشهر من عمرها/...

فى الجزائر لا تُمنح الأم العاملة إلا ثمانى وتسعين يوما كعطلة أمومة ثم تعود لمنصبها تاركة وراءها رضيعا تتناقله الأيدى من جدات وعمات وجارات... إذ لا تقدم الحكومة حتى منحة كأجر للمربية، بخلاف الدول الغربية إذ تمتد العطلة من تسعة أشهر إلى سنة بأجر مئة بالمئة، وعندما تعود المرأة للعمل تقدم لها منحة كمساعدة لدفع أجر مربية/...

احتكاكها اليومى بتلك الطفلة جعلها تتذكر ابنتها ليل نهار وتنزف وتُذبحُ وتكره الطفلة البريئة وتكره نفسها، تكره الطفلة وتحقد عليها لأنها تتمتع بلقب وبيت وأهل وابنتها ستكبر منبوذة محتقرة لقيطة بنت حرام، وتكره نفسها لأنها السبب فى ذلك، ولأنها تكره هذه الطفلة البريئة دون ذنب، وتتألم كونها ترعى أولاد غيرها فى حين ابنتها مرمية فى أحد الملاجئ الحقيرة

***

كان يوم العيد شاقًا جدًا. صوانى نحاسية موضوعة مرفوعة...، ضيوف داخلون وآخرون خارجون وتلك المسكينة تحولت اليوم إلى نادلة ما زالت لم ترتح من الأشغال الشاقة التى سبقت التحضير للعيد، من غسل الجدران وتلميع الزجاج والخشب وتجهيز أصناف الحلوى...

وكلما كثر عدد الزوار زاد السؤال عن هذه القروية المغتربة الغريبة فى كل شيء من لباس وتسريحة شعر ووجه شاحب بلا ألوان ولا أقنعة، وطريقة كلام على قلته، وزادت نظرات الاحتقار والعجرفة ليس لعلمهم بسرها، لكن لأنها قادمة من الريف وكأن الإقامة فى الريف وصمة عار وذل و الإقامة فى المدينة تاج فخر وعزة حتى لوكانت داخل كوخ قصديرى على ضفاف الحياة المدنية أو داخل سكنات جماعية حيث يشترك السكان فى دورة المياه.

وضعت العمة سماعة الهاتف ثم كلمت كنتهثا قائلة:

- هاو جاى سى احسن يغافرنا.

(سى احسن هذا هو مهاجر فرنسى غنى ، قرر الاستقرار فى وطنه بعد تقاعده)

- قالت الكنة ألم يعد بعد لفرنسا.

- لن يعود قرر الاستقرار هنا .

- وزوجته و أبناؤه؟

- زوجته الفرنسية تركته وانتقلت للعيش مع صديقها الإيطالى بعد أن أصيب بالسكري، وأولاده ،كل انتقل للعيش مع شريكه.

- إيه، هذا حال اللى يتزوج أجنبية، نفس الشيء حدث لخالى عندما مرض وضعف نظره طردته زوجته الفرنسية التى قضى معها أيام قوته وفحولته وشبابه ليعود عظما هرما مقوسا فاقد البصر لزوجته الجزائرية التى رماها فتاة فى الثلاثين بأربع أطفال ولم تر منه إلا بضع فرنكات من حين لآخر... و هاهى بكل سذاجة تستقبله وتعمل له ممرضة وخادمة قائلة أنه مهما فعل يظل والد أبنائها .

- بارك الله فيها أصيلة- قالت العمة .

- بل ساذجة سخيفة.

- وماذا تفعل؟ تطرده؟ وهل سيعود بها الزمن إن فعلت؟

- لا أدري، لكن من الصعب الاعتناء بشخص هرم أفنى شبابه وعمره وصحته فى خدمة وإسعاد امرأة أخرى، صعب، صعب جدا.

وجاء الضيف المنتظر ببدلة وقبعة وعصى، وطول الوقت ظل ينظر لسميحة ثم تساءل عن هوية الفتاة.

- قالت العمة: ابنة أخي، لم تتفاهم مع زوجات إخوتها وزوجة أبيها فأحضرتها للإقامة عندي.

تكررت زيارات الرجل غيرالمعتادة وكان دائم النظر لسميحة والسؤال عنها، لكنه كلما حاول محادثتها تقنعت الصمت .

لاحظت العمة اهتمامه وكادت تفرح لكنها تذكرت مصيبة الفتاة

وعارها الذى لا سبيل لترقيعه .

جاء الرجل طالبا يد قريبتها قائلا :

- أتشرف بنسب عائلة طيبة عريقة تعود أصولها إلى الوالى الصالح (سيدى لَعْتيقْ) ، والفتاة شريفة وعلى خلق وحياء لم يشهد له مثيل.

فها هو رغم حياته لأكثر من ربع قرن بمدينة الجن والملائكة إلا أنه مازال يحمل نفس الأحكام السطحية المجمدة إلى حين، فالإنسان العربى وبرغم كل ما يدعيه من تحضر وكل محاولاته لمواكبة العصر، مازال يحمل نفس المنهجية التنبوئية لإصدار الأحكام الجزافية المسبقة السطحية.

فالفتاة المرحة الضحوك القوية الجريئة الشجاعة هى بالضرورة (ساندروم) لمتلازمة المجون والانحلال وبؤرة فساد وأرض عمومية... والفتاة الحزينة المكتئبة المنطوية المتوحدة على ذاتها وربما تعانى عقدا وهموما هى مثال الأخلاق والعفة والشرف (وكم أثبث الواقع العكس)... والفتاة الجميلة الأنيقة مشروع عاهرة أو بالأحرى مادة إشهارية لما تحمل من بضاعة بجسدها...

إلى غير ذلك من الأحكام الجزافية والإسقاطات المرضية، والتخبط العشوائى الأعمى لبعض المتشبقين المرضى والواهمين والنمامين.

***

لم تجد المرأة إلا أن تقول له:

- الشرف الأعظم لنا ولكن أمهلنى بعض الوقت لسؤالها ومشاورة أبيها وهى تقول فى نفسها (يريدها لشرفها ياويلتى على شرفها... ياويلتي، آه لو تعلم).

ظلت المرأة محتارة بين رغبة فى التخلص من الفتاة وهمها وبين مشكل جرحها المستديم الذى ليس له دواء. إلى أن جاءتها فكرة لم تدر أهى رحمة إلهية أم غزوة شيطانية و (إن كيدهن عظيم)، فقررت أن تحدث الرجل بحال الفتاة من أن مجموعة إرهابية سطت على القرية فسرقت ونهبت واغتصبت/ وكثيرا ما كان يحدث هذا فلن يكذبها أحد/، وأن الفتاة واحدة من الضحايا، وهكذا ستقطع الهواجس التى أضنتها فإما أن يقبل أو يرفض .

اتصلت بالرجل طالبة حضوره، كانت قلقة تقطع الوقت ذهابا وإيابا فلا يقطع، وما زاد فى قلقها وتوترها وصوله منمقا محملا بالهدايا .

جلسا يرتشفان قهوة ظنت أنها أكثر سوادًا من المعتاد، وطعمها مر كأنها أول مرة اكتشفت أنها تشرب القهوة بلا سكر/ نظرا لإصابتها بمرض السكري.

- قال لها: أأقول مبارك على بنت الشرف و الحسب والنسب؟

- قالت متلعثمة محمرة الوجنتين كصبية فى العشرين: أجل ولكن أ... أ... الفتاة...

- مابها مريضة مرتبطة، ما الأمر؟؟ أقلقتنى سيدتي...

- قالت كمن يلقى قنبلة ويفر: ليست عذراء...

- ماذا... مطلقة؟

- لا... لكن لسوء حظها عندما هاجمت مجموعة إرهابية القرية فى إحدى المرات استولت على الذهب والأموال وزيت الزيتون والمواشى الخاصة بالأهالى واغتصبت مجوعة من النساء، وكانت هذه اليتيمة المسكينة المغبونة عديمة الحظ من الضحايا/ كانت تحاول إقحام كل الكلمات الحزينة لاستعطاف الرجل وشحن همته وأنفته وشهامته، ونجحت فعلا فى ذلك، إذ قال الرجل بنبرة عطف:

- مسكينة... هذا زاد من إصرارى على اتمام الأمر على بركة الله.

أطلقت العمة زغرودة لعلعت فى أرجاء البيت وأيقظت تلك المومياء من ذهولها وتخشبها ليس فرحا، فالفرح كُفن مع أمها، بل تحسرًا ولوما صامتا لقدرها الملعون أم لعمتها التى لم تأبه لموافقتها أو رفضها ولم تسألها حتى مجاملة عن رأيها... لا يهم فمهما سيكون حالها أكيد أكرم من بقائها هنا تتبلل بشتائم كنة عمتها المتعجرفة .

***

رغم خطبتها لم تعتقتها كنة عمتها، إذ ظلت تقول عنها عاهرة و بنت حرام وتذكرها بابنتها اللقيطة المرمية فى الملجيء...

بعد ذلك تستدير لحماتها متهمة إياها بخداع الرجل وإخفاء الحقيقة عنه كونها زانية وأم عازبة، وبأن الزواج باطل...

وتظل المرأة المنهكة من خطى الزمن صامتة تفاديا للصدام والمشاكل، لكنها فى إحدى المرات قالت لها:

- أنت لا تحتملين وجودها رغم أنك تشغلينها خادمة مجانية، فلمَ تعرقلين زواجها؟... ثم أتظنين أن زوجته الفرنسية كانت عذراء؟
- الكنة: أعلم أكيد ليست عذراء، فمن السادسة عشر تبدأ الغربيات فى الإنجاب غير الشرعى من أصدقائهن، ويتحملن غالبا مسؤلية الأطفال، وتتعاقب سلسلة الارتباط والانفصال فلا تكمل الواحدة منهن الخامس والعشرين إلا وتجدها جارة وراءها قطيعا من الأطفال مختلفى اللون والشكل وتجرى بين المدرسة والحضانة والوظيفة... ومنهن من تلد وترمى لدور الطفولة المسعفة... والغريب أن العربى عندما يتوزج أجنبية يتقبلها بكل أمتعتها وتاريخها، لكن إذا كانت فتاة عربية يشترط أن يكون أول من وضع رجله داخل أراضيها وحلق بأجوائها حتى لو كان له تاريخ استعمارى أسود فقط لكون جسده لا يحتفظ بدليل إدانة .

ثم هل العذرية دليل شرف وفضيلة؟... فالفتاة الخاطئة تعيد كل شيء إلى ما كان عليه وتمسح آثار أى بصمات من جسدها بعملية

بسيطة، وكم من ربما فعلت ذلك زلة أو مرغمة فوصمت بالعار طوال حياتها ...

- العمة: لم أفهم جيدا ماتقولين، لكنك تعترفين بالزلل، وهذه المسكينة أليست بشرا يزل؟، فلم تحاربينها بحقد وكأن بينكما ثأرًا؟
- ألم تعلمى لمَ؟...غرييييب؟ لأنك منافقة ولست موضوعية ولست عادلة، أنسيت أنك وقفت ضد زواج ابنك منى فقط لأنى كنت أحب شابًا قبل أن أعرفه وكان سيخطبنى لولا موته على أيدى الإرهابيين الكلاب عندما هجموا على المستشفى وذبحوا الأطباء المناوبين واستولوا على الأدوية والمعدات... فما بالك لو وجدنى ابنك غير عذراء و...،

ثم هرعت لغرفتها باكية لتذكرها ذلك الحادث الرهيب الذى أودى بحبيبها االسابق.

***

جاء اليوم الموعود وشاهد ومشهود، جلست سميحة على أريكة البطولة تائهة تغوص فى عالمها الداخلى كأن مايدور لا يعنيها.

غصّت القاعة بالمدعوين وأصبح الجو خانقا رغم التكييف، خانقا من روائح العطور والرنين والنفاق والابتسامات المصطنعة والمجاملات المجترة، فما عدت تفرق بين عطر أصلى أو مقلد، ولا ذهب حقيقى أو مطلي. وانطلقت أغانى الراى بصخبها المجنون ناعقة كالبوم.

وفجأة شخصَت العيون للقادم غير المنتظر فأغلقت العمة جهاز الراديو وانطلقت تحتضن الزائر العزيز وتقبله ودموعها تنهمر:

- لمَ لمْ تختبرنا بقدومك يا ولدي؟

- أردت أن أفاجئكم يا أمي، لكن أين فضيلة والبنات؟

- أخبرتنى إنها ستذهب للحلاقة ثم تجهز نفسها وتكون هنا قبل العشاء، وأخذت البنات عند والدتها كى لا يزعجنها.

- سأذهب لمفاجأتها ونعود سويًا.

إنطلق مُمَنٍ نفسه بلقاء حميمى ساخن بعد طول فراق والتهاب أشواق، محدثًا نفسه:

صدقت الشاعرة حسيبة طاهر، إذ قالت:

- أعشق الفراق فما أجمل التلاقى بعد طول فراق.

صعد الدرج لاهثا... وضع المفتاح فى الباب بيد مرتعشة تلهو بها

الأشواق... فتح الباب فصعقه المنظر المتجسد على الأريكة: زوجته الفاضلة مربية الأجيال عارية تمارس طقوس الخيانة بكل جدية ووله مع ابن عمها الذى طالما تغنت أنه مثل أخيها.

***

نُقلت لبيت زوجها، ورغم حب الرجل لها وحسن معاملته والعيش الرغد من أجمل لباس وأشهى أصناف إلا أن حياتها لم تهنأ لأسباب عديدة متشابكة:

تخلى عائلتها عنها، حلمها بأن ترتمى فى حضن أبيها وتستسمحه، ابنتها المرمية فى أحد الملاجئ أو المقابر.

ومن يدري؟... مشاعرها المتذبذبة المتصارعة بين حب محتشم لابنتها وعدم القدرة على التوقف عن التفكير بها فرغم كونها ثمرة عار وعهر و... إلا أنها تظل ابنتها لحمها وشرارة من روحها وإن فكرت بها ذبحها الذنب وإن لم تفعل أيضا.

فكلما كان يأتى الليل ارتمت على مخدة ما عادت ترحب بأدمعها... ملتها وتقمصت ملامحها وشؤمها... وحاولت أن تستريح من هموم اليوم المشبع بعبق الوهم، ومرارة السؤم،...

لكن هيهات... فلا راحة إلا مع الأموات...

فى جوف الليل البهيم والصمت المهيب

تأتى الذكريات زخات زخات...

ما أقل البسمات وما أكثر الدمعات...

دهاليز الذاكرة مظلمة مهما أنرت فيها من شمعات...

الماضى لا يموت يا صاح...

بل يحيا هنالك فى الأنفاق...

كالفطر السام يقتل وليس له من ترياق...

والآتى ملامحه ترسمها الآفاق...
بهية تأخذك لها الأشواق...
تمهل ولا تنساق...
فالحلم كاذب أفاق...
كله خداع ونفاق...
لا تصدق أن للصبح شروق...
فالشروق منبعه الروح...
وقاتله ملح الأحداق...
فكافاك تشبقًا وتملقًا بالخيَال...
ولا تكن الخيل بل كن الخيَّال وللواقع ميال...
وعش بكامل وعيك مهما قست الأيام .

أما زوجها فرغم حبه وحنانه الأبوى لكن لم تجد فيه عنفوانًا يطفئ لهيب العذراء المتعطشة.

أجل فرغم عطبها الجسدى النافى لعذريتها، إلا أن إحساسها هو إحساس عذراء متعطشة للتطبيق الميدانى لشعائر الحب وطقوسه العربية والمدبلجة.

للأسف كان الرجل شيخًا شبه هرم أكلت السنون قوته واستنزفت حسناوات فرنسا طاقته، فإذ بها تتحول إلى ممرضة وراعية أكثر من زوجة، وحتى تلك المرات القلائل التى كانت فيها العملية ناجحة لم تكن بذوره مثمرة ولم تحظ منها بحمل.

أليس غريبًا أمر القدر؟

غلطة وشهوة عابرة عبثية فى الحرام تنشأ منها بذرة مكنونة بالحياة، ومحاولات عديدة مخططة ومقصودة لا تحقق الهدف.

فعلا أحيانا تكاد تشك فى كونك عاقل وأن ما يحدث لك وواقع...، ما أصعب أن تقف على حافة العقل والجنون، فلا أنت مجنون فاقد للوعى تمزقت كل (الكابلات) التى توصلك بالواقع.

فما عدت شاعرًا بما يدور حولك ولا الآخر يعى أو يبالى بما يدور بعالمك المغلق، ولا حتى تذرك جنونك، ولا أنت عاقل بمفهوم من حولك من العقلاء، إذ تصبح عاجزًا عن تصوير وتوصيل ما يجول فى خاطرك من تساؤلات وهواجس واستقراءات واستنتاجات، وإن فعلت تجد نفسك مركز دائرة محيطها أصابع اتهام تعلن جنونك أو كفرك.

فلا أنت حظيت بإجابة ولا حافظت على كرسيك مع العقلاء فتفضل حينها الكتمان والتظاهر بالمجاراة والعودة لازدواجية المنهج وأنت على يقين بأنك تقول مالا تعتقد.

وأتضح بعد زيارات متعددة لطبيبات متخصصات فى الأمراض النسائية أن سبب تأخر الحمل منها، إذ أصيبت بالتهابات ميكروبية نتيجة عدم الرعاية الجيدة بعد وضعها لابنتها/...

هناك ميكروبات من خارج الجسم مثل التريكوموناس تأتى عن طريق عدوى إما جنسية (من الزوج)، أو غير جنسية (من منظار كشف النساء غير المعقم مثلا)، وهناك ميكروبات تكون من داخل

الجسم مثل فطر المونيليا الذى لا يتحرك ويوجد طبيعيًا فى الشرج واللعاب وإذا وضع فى مكان آخر سبب العدوى/.

وإذا كانت هذه الحالة تصيب بعض النسوة بعد الولادة نظرًا للعادات البالية السخيفة مثل عدم الاغتسال أربعين يوما بعد الولادة أو طيلة فترة الحيض وإن فعلت إحداهن واستحمت عدت مجنونة متهورة وستموت وتمرض... فما بالنا بنفساء فى وضعها، لا رعاية صحية ولا تغذية جيدة... مع أن العلم يقول أن المرأة بإمكانها الاستحمام بعد أربع وعشرين ساعة من الوضع.

وأخيرًا جادت رياح القدر ببذرة صالحة للإنتاش، وطار العجوز فرحًا، كيف لا وهو يثبث شباب فحولته وجدارته بالحياة بقدرته على وهب الحياة...

كيف لا، والقادم المنتظر سيعوض حرمانه من أولاده من زوجته الفرنسية، فنسى أنه على مشارف الثمانين وأضحى نائمًا قائمًا حالمًا بالأمير المنتظر، وعاد للتدخين ولم يعد يطبق حميته الغذائية ضاربًا نصائح طبيبه عرض الحائط، وعاد يتمايل على أنغام عبد الوهاب وفريد ، وأنريكو ماتياس...

ومرت الأيام ثقيلة نحو البداية، سريعة نحو النهاية، وأجاءها المخاض غرفة التوليد وأجاءته أزمة ربو حادة غرفة الإنعاش.

كانت تصرخ من الألم ومن كل تراكمات ماضيها المرصوصة وأناتها

المكبوتة، فقد واتت الرياح حزنها فلتصرخ وتنتحب ههنا متذرعة بمخاضها.

صرخت وصرخت وصرخت... وصرخ من تحتها معلنا دخول أولى ذرات الأكسجين لصدره ، وصرخ من فوقها معلنا خروج آخر درات الحياة من جسده ...

خرجت للحياة ثانية بدل عانس وأم عزباء، إلى أرملة حاملة بين ذراعيها طفلا يتيمًا وهمًا كبيرًا تتخبطها الحياة الصعبة القاسية بلا رحمة ولا كلل وتلقى بها من هم إلى هم، فتذكرت ما كانت تردد جدتها المرحومة أن الفتاة البيضاء يكتب قدرها بالأسود والسمراء بالأبيض.

كم صدقت ذلك الكلام وسعدت به اعتقادًا منها أان حظها سيكون سعيدًا، لكن الملائكة ربما أخطأت اللون معها أو نسيت أن تكتب نهائيًا. وكم تمنت لو ذهبت باحثة عن ابنتها لتربيها مع أخيها، لكن من أين لها الجرأة على ذلك.

أفرغت كل عقدها وكبتها فى تربية ابنها تربية صارمة فكانت تقسو عليه فلا لعب ولا خروج خصوصا مخالطة البنات.

كانت دائمة تعنيفه وضربه لو رأته يكلم أو يلعب مع فتاة، ثم تتألم وتنتابها نوبات بكاء وشعور بالذنب فتحنو عليه وتفرط فى تدليله بشراء كل ما يرغب فيه من ألعاب وحلويات...

وكثيرًا ما كانت تحتضنه أو تقبله وفجأة تدفعه عنها عندما تتذكر أخته والتفريط فيها والتقصير فى حقها...

كم كان يستيقظ فى الليل باكيا شاكيا لها خوفه، فتكلمه بنبرة قاسية وتعيده لغرفته رغم رغبتها فى ضمه لصدرها والنوم بجانبه، لكن لم تفعل هذا وأخته محرومة من حنانها.

وكبر الولد وكان يشعر بالحيرة فى شخصية أمه دائمة الحزن والتناقض، العنيفة الحنونة الطيبة وهو ما جعله دائم القلق والتوتر، يشعر أن أمه تعاقبله على ذنب ما لا يفهمه...

***

وتحسنت علاقتها بعائلتها بعد موت والدها فأصبحت تزورهم ويزورونها، وتعلق الشاب الخجول المنطوى بابنة خاله، خصوصًا بعد أن حازت شهادة البكالوريا وانتقلت لنفس جامعته، فأصبحا لا يفترقان فى المحاضرة وفى المطعم وفى الحديقة، يفترقان فقط فى المساء عندما يعود هو لغرفته الباردة الصامتة بيته الحزين ووجه أمه الشاحب الباهت، وتعود زينة إلى غرفتها بالإقامة الجامعية .

وجد فى نوال الحب المنشود والحضن المفقود والصحبة والونس والوجه البشوش، والنكت والضحك والكلام العفوى بلا عقد ...

فالرجل دائما يبحث فى المرأة عن شخص أمه أو نقيضها... لذلك أصبح يحس بخوف شديد على فقدان حبيبته ولا يتصور حياته دونها، إذ كان نكرة وحيدًا منطويًا لا يستطيع حتى إلقاء التحية على البنات، فكن يتحررشن به ويعاكسنه ويضحكن من خجله العذري، إلى أن جاءته زينة فأحس بقيمته واكتسب ثقة بنفسه وأصبح يتباهى ويتفاخر بحبهما... فتعلق بها تعلق الرضيع بنهد أمه.

كم كانت صعبة أيام العطل عليه يمضيها كالمجنون، وكم طلب من أمه استضافتها فى بيتهم أيام الجمعة والسبت بدل بقائها بالحي، فترمقه بننظرة مخيفة وتنهره وتعنفه فيحمرخجلا كأنه اقترف ذنبا لا يغتفر... ثم أصبح يختلس اللحظات ليلتقى بها فى المقاهى المعزولة .إلى أن جاء أبوها يومًا بغير موعد وجرها للسيارة بعنف وحملها لبيتهم بالريف.

لم تفهم شيئًا وسألت أباها:

- ما الخطب؟

لكنه لا يجيب والشرر يتطاير من عينيه حتى وسوس لها بموت أمها، ولم تتنفس الصعداء إلا برؤية أمها حية ترزق.

دخلت البيت مستغربة، فأمها لم تستقبلها بالأحضان كعادتها، ثم لحق بها أبوها معنفا شاتما صافعًا، بعد أن وصله خبر تجوالها فى المقاهى والحدائق مع ابن أخته، وحلف يمينا بأنها لن تعود للجامعة.

***

رن الهاتف...

- سميحة: ألو من معي؟

- رد صوت وهن لا يكاد يسمع: أنا، أنا نوال وسردت عليها قصتها .

ظلت سميحة قلقلقة متوترة ذاهبة آتية، ماذا تفعل؟

ها هو التاريخ يعيد نفسه، سيحرم ابنها من حبه كما حدث لها وقد تتكرر الخطيئة والمأساة...، يجب أن تتحرك فورًا...

كلمت ابنها وقررا الذهاب لخطبة الفتاة وحل المشكلة... فاستقبلتهما الأم بعجرفة وتكبر واعتذر الأب عن قبول طلبهما بحجة أن البنت مازالت صغيرة ...

لكن بعد أيام وصلهم خبر خطبة الفتاة من سائق سيارة أجرة جارهم .

استغرب الشاب الأمر لم يرفضه خاله وهو الجامعى الميسور، ويزوج ابنته لشاب لم يتجاوز السادس إبتدائي، وظل يلح على أمه فى العودة والاستفسار عن الأمر وهى ترفض ذلك .

ساءت حالة وليد النفسية وتدهورت وتلاشى الأمل فى إمكانية حب آخر، فهو الخجول المنطوى الذى يخاف المرأة بدل أن تخافه وتتحرش به بدل أن يفعل.

حتى نوال كم قاوم عقده وخجله وهى تلاحقه بأنوثتها الصارخة، وهو يفر منها ومن امتحان رجولته التى لم يتأكد منها إلا على إثر قبلاتها الملتهبة ولمساتها المانحة روح الحياة لقلبه وأعصابه وكيانه.

- هل ستجود عليه السماء بهدية أخرى فى أنوثة امرأة؟
- لا يظن .

لم يعد يتكلم ولا يحلق ولا يأكل... أفكار غريبة تخترق رأسه:

- من أنا؟، من هذه المرأة الشاحبة التى أرضعتنى حزنا ولقحتنى عقدا وخوفا؟، لم الحياة وما الغاية منها؟: لنعبد الله، وما يفيد الله عبادة مخلوقات تافهة؟، لم كل هذا الشر فى قلب الإنسان وهو لا يملك حتى اختيار اسمه؟

أمضى وقته غائبًا عن الواقع، غارق فى أفكاره التى يتساءل عن هويتها أهى شيطانية أم إلهية؟، وإن كانت شيطانية فهل سيحاسب عليها؟، ولم يحاسب، أليس الله هو من خلق له هذا العقل ومنحه القدرة على التفكير؟، ونتيجة لأفكاره الغريبة يصاب باختناق وضيق نفس،...

وبعد تحسن حالته قليلا عن طريق الأدوية المهدئة التى قال الطبيب أنها تزيل العرض لا المرض، قررت أمه أن تعود وتستفسر عن سبب رفضهم لابنها.

- قالت سميحة: جئت أستفسر وأظن أنه من حقى عن سبب رفضكم لإبنى وإعطائها للسائق.
- ليلى: ومابه السائق جار ونعرفه، رجل شريف ومن عائلة محترمة وشرييييفة.
- سميحة: أجل، ولكن نحن سبقنا بالطلب .
- ليلى: وهل الأمر بالأسبقية؟ هى تحبه واختارته وقرأت الفاتحة وانتهينا .

فتحت نوال باب غرفتها وخرجت صارخة:

- كاذبة كاذبة، لا أحبه لا أريده، أريد وليد .

وهنا خرج أبوها من صمته وصرخ بها على إثر صفعة:

- عودى إلى غرفتك..

- صرخت سميحة: هل وصل الأمر للضرب؟

- ليلى: هى ابنتنا نضربها نرميها للكلاب لا أحد له دخل.

- قال وليد: لم كل هذا ياخال لم؟

- ليلى: أجبه لم... تفضل

طأطأ الرجل رأسه...

- ظل الشاب يلح فى سؤله: لم؟

خرجت ليلى عن صوابها صارخة:

- تريد الحقيقة حسنا لأنك ابن عاهره عاهرة

- ماذا؟ عيب يا امرأة خالى

- هههههه... العيب مافعلته أمك من سنين ...

- صرخت سميحة: لاااا لا أسكتى أرجووووك أرجوك ...

- لن أسكت، أجل عاهر وخاطئة، ومع من؟... مع زوج أختها التى تسببت بطلاقها، وأبوها الذى مات بسببها وأختك هههه... أجل أختك بنت الحرام المرمية فى ملاجئ الأيتام... أى ملجأ؟ أكيد هى الآن تبيع جسدها على الأرصفة وأبوك المخدوع ومن يدرى أنه أبوك ...

- صرخت سميحة: أجل أنا خاطئة عاهرة لكن بالخطأ بالخطأ

بالصدفة بالقدر... خاطئة بذنبك بسبك، ذلك اليوم هو لم يأت لأجلى بل لأجلك أنت قسما بالله لأجلك قسما بالله لأجلك وصرح بذلك، قتلتينى مرتان مرة بخيانتك لأخى وصمتى على جرمك، واليوم بهتك سرى أمام أغلى ما أملك وتدمير آخر أمل لي، قاتلة، قاتلة...

تناولت سكينا على الطاولة وسط صحن برتقال وانهالت عليها طعنًا

***

نوال تسير بشعر مجعد أحمر على بنفسجى وتنورة قصيرة وقميص ينحصر عند صدرها ليبين ثلاثة أرباع ثدييها، وبفمها علكة تلوكها باحتراف وخبرة.

تقطع الشارع فى غنج مثير مسيل للعاب دون ملامسة، حينما رأته يضحك ويكلم نفسه اقتربت منه:

- وليد وليد

لم يأبه لها...

- كلمته وهى تحركه: وليد أنا نوال ابنة خالك.

- هههه ومن يدرى أنه خالك... قال .

- ليس خالى أبى هو خالك .

- هههه... ومن يدرى أنه أبى .

- أنا نوال، وأنت وليد.

دفعها بعنف صارخًا:

- ومن يدرى أنكِ نوال؟... ومن يدرى أنى وليد، من يدري؟... ومن يدري؟...

تركها مهرولا إلى عالمه البريء النقي، عالمه الخالى من البشر من الخيانة من الكذب من الخداع من الأقنعة ...

حاولت اللحاق به، لكن شابًا مفتول العضلات جذبها من ذراعها وأدخلها سيارة حمراء لامعة بدون سقف، وانطلق بها إلى الضياع اللذيذ أو اللذة المضيّعة على أنغام موسيقى صاخبة.

***

المؤلفة فى سطور

حسيبة طاهر جفيم

أخصائية نفسية وأديبة جزائرية مقيمة بكندا.

من مؤلفتها المنشورة :

- لعنة الفرعون... رواية
- بحيرة الرب... مجموعة قصصية.
- تراتيل سيدة العشق... شعر وخواطر

مخطوطات :

- نواميس كامى رواية
- مجموعة قصصية
- ديوان شعر